﴿ لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ[1] (٥٧) ﴾ [الصافات] أى : الذين تحضرهم الملائكة للعذاب ، وهنا تزداد فرحة المؤمنين بإيمانهم ، ويزداد شكرهم لله واعترافهم بفضله ، ولا يُنغِّص عليهم هذه الفرحةَ إلا الخوفُ من الموت وفوات هذا النعيم ، فيقولون :

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾

فهم إذن يخافون فواتَ هذا النعيم ، فيتساءلون ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ (٥٩) ﴾ [الصافات] يعنى : ألسنا سنموتُ مرة أخرى ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) ﴾ [الصافات] أى : بعد ما نحن فيه من النعيم ، أليس هناك شىء آخر نُحاسَب ونُعذَّب عليه ، كأن أمنيته أنْ يظلَّ على هذه الحال من التنعُّم ، فلا يفوته لا بموت ولا بتغيُّر الحال من النعيم إلى العذاب .

﴿ إِنَّ هَٰذَا (٦٠) ﴾ [الصافات] أى : ما نحن فيه من النعيم الدائم الذى لا ينقطع ولا يزول ، ولا يأتى بعده حساب آخر ولا عذاب ﴿ لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) ﴾ [الصافات] ولا شك أن هذه غاية ينبغى أن يعمل لها كل عامل ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾ [الصافات]

فكأن الحق سبحانه يحكى لنا هذا الموقف من الآخرة ليُبيِّن لنا أثر الإيمان وعاقبةَ العمل الصالح ، ويستحضر لنا ما يحدث فى اليوم الآخر ،

---

(١) المحضرين : المرغمين على الحضور ، يُحضرهم الملائكة للعذاب . [القاموس القويم - مادة : حضر] . وقال الماوردى : أحضر لا يُستعمل مطلقاً إلا فى الشر . نقله القرطبى فى تفسيره (٥٧٢٣/٨) .

لنأخذ من ذلك العبرة والعظة ، فكلُّ عمل يُؤدِّى إلى هذه العاقبة سَهْل هَيِّن ، مهما تحمَّلْنا فيه من مشاقَّ ومتاعبَ ، وهو مكسب لا خسارةَ فيه .

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ[1] (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا[2] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾

الآيات هنا تراوح بين ذكْر الجنة وما فيها من النعيم ، وذكْر النار وما فيها من العذاب ، فتعود مرة أخرى إلى جهنم وعذابها ووَصْف ما فيها ﴿ أَذَٰلِكَ (٦٢) ﴾ [الصافات] أى : ما سبق ذكْره من نعيم الجنة ﴿ خَيْرٌ (٦٢) ﴾ [الصافات] أفضل ، فهى بمعنى أفعل التفضيل . ﴿ نُزُلاً (٦٢) ﴾ [الصافات] أى : مَنْزلاً وضيافةً .

فالنُّزُل مَا يُعَدُّ للضيف الطارىء من مسكن ، فيه مُقوِّمات الحياة من مأكل ومشرب وخلافه ، لذلك يسمون الفندق (نُزُل) ، والفنادق مع ما فيها الآن من سبل الراحة هى ما أعدَّه البشر للبشر ، فما أدراك بما أعدَّه ربُّ البشر ؟ لا بُدَّ أنْ تكون الضيافةُ على قدر إمكانات المضيف .

---

(١) شجرة الزقوم مشتقة من التزقم ، وهو البلع على جهد لكراهتها ونَتْنها . واختُلف فيها : هل هى من شجر الدنيا التى تعرفها العرب أم لا ؟ على قولين :
أحدهما : أنها معروفة من شجر الدنيا . ومن قال بهذا اختلفوا فيها ، فقال قطرب : إنها شجرة مُرَّة تكون بتهامة من أخبث الشجر . وقال غيره : بل هو كل نبات قاتل .
الثانى : أنها لا تُعرف فى شجر الدنيا . فلما نزلت هذه الآية فى شجرة الزقوم قال كفار قريش : ما نعرف هذه الشجرة . فقدم عليهم رجل من إفريقية فسألوه فقال : هو عندنا الزبد والتمر . [نقله القرطبى فى تفسيره ٨/٥٧٢٤]

(٢) طلعها : ثمرها ، سُمِّى طَلْعاً لطلوعه .

﴿ **أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ** ﴿٦٢﴾ ﴾ [الصافات] وطبيعى أن نسألَ : ما هى يا ربّ شجرةُ الزَّقُّوم ؟ فيصفُها الله لَنَا ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ** ﴿٦٣﴾ ﴾ [الصافات] فتنة بمعنى : محنةَ وعذاب ﴿ **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ** ﴿٦٤﴾ ﴾ [الصافات] أى : فى وسطها .

وهذا مظهر من مظاهر طلاقة القدرة ، فلا تسأل عن كيفية نُمو شجرة فى وسط النار ؛ لأن الفاعل هو الله عز وجل . إذن : خُذْها فى إطار تنزيه الحق عن قوانين الخَلْق .

ومعنى ﴿ **طَلْعُهَا** ﴿٦٥﴾ ﴾ [الصافات] أى : ثمرها ﴿ **كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ** ﴿٦٥﴾ ﴾ [الصافات] لكن نحن لم نَرَ رءوس الشياطين ، لذلك وقف بعض المستشرقين الذين يحاولون الاستدراك على كلام الله ، وقف يقول :

كيف يُشبِّه اللهُ فى هذه الآية مجهولاً بمجهول ، فنحن لم نَرَ شجرةَ الزقوم ، ولم نر رءوس الشياطين ، والتشبيه يأتى لتوضيح المشبّه بذكر المشبَّه به ، فما فائدة أنْ تُشبه مجهولاً بمجهول ؟

نقول : مُخ الإنسان فيه جزء للحافظة ، وجزء للذاكرة ، وجزء للتخيُّل يُسمَّى مُخَيلة ، فالإنسان يرى الأشياء ، فتسجلها الحافظة فى حاشية الشعور ، ثم الذاكرة تستدعى له هذه الأشياء ، أما المخيلة فتأخذ من واقع الأشياء وتكوِّن صوراً جديدة مُتخيَّلة ، لا أصلَ لها فى الواقع .

هنا أنت مع هذا التشبيه ﴿ **طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ** ﴿٦٥﴾ ﴾ [الصافات] مع أنك لم تَرَ رءوس الشياطين ، إلا أن خيالك سيرسم لها صورة على أبشع ما يكون ، وعندها سيتضح لك الفارق بين النُّزُل الذى أعَدَّهُ الله للمؤمنين فى الجنة وهذه الشجرة التى ثمارها كرءوس الشياطين ، فالجمع بين هاتين الصورتين مقصود ، فكأن ربّكَ عزَّ وجلَّ أراد أنْ يسوقَ لك العظَة فى وقت الجزاء المشهود ، لا فى وقت التكذيب .

وشجـرة الزقوم شـجرة خـبيثـة ، مُنتنة الرائحة ، مُـرَّة الطَّعْم ، موجـودة فى منطقة تهامـة ، جعلها الله مـثلاً للشجـرة التى تنبت فى أصل الجحـيم . قالوا : هذا بمثـابة تقريع للمـعذَّبين بهذه الشـجرة ، لأنهم كانوا يُكذِّبون بالبعث وبالحيـاة بعد الموت ، فجعل الله لهم هذه الشجـرة تنبت فى وسط جهنم وفيـها طعامـهم ، فلا طعام لهم غـير ثمرها .

والشجرة تعنى الخضرة والمائية ، ومعلوم أن المائية تنافى النار، وفى هذا إشارة إلـى طلاقة القدرة التـى كذَّبوا بها فى الـدنيا . إذن : كَـوْن هذه الشجـرة فى أصل الجـحيم ، وهم يعـيشون على ثمـرها ويحتـاجون إليـها وهى شـاخصة أمـامهم ، هذا كله تقـريع لهم على ما كذّبوا به .

وهذه المسـألة تُذكِّرنا بسيدنا إبراهيم - عليه السلام - حين أُلْقِى فى النار ، فجعلها الله عليه بَرْداً وسلاماً ، وعطَّل بقدرته تعالى قانون الإحراق .

الحق سبحانه يريد أنْ يُبشِّع صورة هذه الشجرة ، مع أن العرب يعرفـون شجرة بهذا الاسم ، ويعـرفون خُبْـثها ونَتْن ريحهـا ومرارة طَعْمها ، ويعرفون طَلْعهـا البسيط ، لكن أحداً لم يَرَ الطَّلْع الذى يُشبه رءوس الشياطين .

إذن : المراد تبشيعه وإعطاء الفـرصة للتخيُّل أنْ يذهبَ فى تصوُّر بشـاعتـه كلَّ مـذهب ، فطَلْع كل شىء يكون جـمـيلاً ، بل هو أجـمل ما فى الشـجرة ، أمـا هذه فطَلْعُهـا كأنه رءوس الشيـاطين ، ولك أنْ تتصوَّر ما فيه من القُبح والدَّمَامَة والشكل المنفِّر .

ومعلوم أن العرب كانت تعتقـد أن الشيطان أقبحُ صورة ، ويقابله

الملاك أحسن وأجمل صورة ، ومن ذلك قول النِّسْوة لما رأيْنَ يوسف عليه السلام : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف]

إذن : رَاعَى القرآن فى هذا التشبيه معتقدات العرب ، وجاء بصورة مجهولة . نعم لكن سيتصوَّرها كلٌّ واحد بمقاييس القبح عنده ، ولو أتى بمثَل محدَّد معروف فى القُبْح ، لكَانَ على لَوْن واحد ، وربما كان قبيحاً فى نظر شخص وغير قبيح فى نظر الآخر ، لكن الحق سبحانه يريد منظراً مُقبَّحاً عند الكل ، ومَنْ منَّا يتصوَّر الشيطانَ جميلاً ؟

لذلك قلنا : إذا جئنا برسامى الكاريكاتير فى العالم ، وقلنا لهم : ارسموا لنا صورة تخيُّلية للشيطان ، فسوف يرسم كلٌّ منهم صورةً للقبح فى نظره ، ولن تجد فيها صورة مثل الأخرى . إذن : جاء تشبيه طلْع شجرة الزقوم برءوس الشياطين ، ليُشيعَ معانى القبح جميعاً فى النفوس ، وهذه الصورة كفيلة بأنْ تُنفِّرنا من هذه الشجرة.

وأصل الطَّلْع هو الكمُّ[1] الذى يحوى أول ثمرة للشجرة ، ويُقَال للكوز الذى يحوى ثمرة النخل وما يشبهها . فإذا خرجتْ منه الشماريخ ، وبانت استدارته وتكوينه يسمى (بلح) طالما كان أخضرَ اللون .

والبلحة لها ثلاثة أوصاف :

الأول : حجمها ، فإذا أخذتْ حجمها الطبيعى والنهائى يبدو دون لون ، فتتلوَّن إما حمراء أو صفراء ، وفى هذه المرحلة يقولون (البلح عَفَّرْ) ويسمونه (زهو) .

(١) الكمُّ والكُمُّ : غلاف الثمر والحب قبل أن يظهر . وهو وعاء الطلع ، وغطاء النَّوْر . فكُمُّ الطَّلعة قشرها ، ومن هذا قيل للقلنسوة كُمَّة لأنها تغطى الرأس ، ومن هذا كُمَّا القميص لأنهما يغطيان اليدين . [لسان العرب - مادة : كمم]

الثانى : إذا استقر اللون وكملَتْ حُمْرته أو صُفْرته يُسمُّونه (بُسْر).

الوصف الثالث : بعد الحجم واللون يأتى القوام : لين أو يابس بحسب البيئة ، فإنْ كانت حارة جافة ، فإنها تؤثر على البُسْر وتُجفِّفه ، فيتحول إلى تمر ، وإنْ كانت البيئة باردة رطبة صار البُسْر رطباً .

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا[1] مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾

معنى : ستضطرهم الضرورة وتُلْجئهم لهذا المثل المكدِّر المنكِّد لهم ، حيث لا طعامَ لهم غيرها ﴿ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الصافات] ولن يأكلوا على قَدْر الضرورة ، بل ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الصافات] وعندما يملأون منها بطونهم تَزْداد النارُ فيها ، فيريدون شراباً يُطفىء هذه النار ، فيكون شرابهم الحميم ، والعياذ بالله .

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الصافات] الشَّوْب هو الشىء المخلوط الممزوج ، والحميم هو الماء الذى بلغ غايةَ الحرارة . وفى موضع آخر ، سَمَّاه القرآن (الغسلين)[2] هذا شرابهم والعياذ بالله ، فإذا ما أكلوا وشربوا عادوا للجحيم مرة أخرى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الصافات]

ثم يُبيِّن الحق سبحانه علَّة ذلك ، وسبب هذا المصير المؤلم ،

---

(١) الشَّوْب : الخَلْط . فالشوب فى الآية : الخلط والمِزَاج [لسان العرب - مادة : شوب] . قال السدى : يُشاب (يُخلط) لهم الحميم بغسَاق أعينهم وصديد من قيحهم ودمائهم . وقيل : يُمزج لهم الزقوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم ، تغليظاً لعذابهم وتجديداً لبلائهم . [القرطبى فى تفسيره ٨/٥٧٢٦ ، ٥٧٢٧] .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الحاقة] ، والغسلين هو صديد أهل النار [التفسير الميسر] .

وأنه ليس ظلماً لهم ، إنما جزاء ما فعلوا :

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يعنى : وجدوا آباءهم على ضلال ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : يتبعون طريقهم ويُقلِّدونهم ، ومعنى ﴿ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الصافات] أى : يُزْعجون ويسرعون كأن شيئاً يحملهم على الإسراع ؛ لأن هذا الفعل (يُهْرَعُونَ) مبنى للمجهول . أى : لمَا لم يُسَمَّ فاعله كما نقول : زُكم فلان ، فالفاعل غير معروف .

ولو كان الإسراع فى اتباع الآباء منهم لَقَال يَهرعون بالفتح ، إنما يُهرعون كأن شيئاً يدفعهم إلى تقليد الآباء ، ليبين لك سبحانه أن الشر أعدى ، لأنه لا تكليفَ للنفس فيه ولا حجزَ للشهوة ، لذلك يجرى الإنسان إليه ويُسرع فى طلبه .

أما الهدى والمنهج فلا يسرع إليه لأنه يُضيِّق عليه مجال الشهوات ، ويُقيِّد حركته فى إطار ما شرع الله ، إذن : هم يُقلِّدون الآباء وهم يعرفون أنهم ضالون لينفلتوا من قَيْد التكاليف الشرعية .

لذلك لما أخذ الله تعالى علينا العهد ونحن فى عالم الذر ، قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف]

وقد حكى القرآن اعترافهم باتباع الآباء فى أكثر من موضع من

كتاب الله ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٧٠) ﴾ [البقرة] ويردُّ عليهم ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

فكأن الحق سبحانه يقول لهم : أنتم كاذبون فى هذا الادعاء . ولو كانت القضية عامة ، فلماذا لم تتبعوا أباكم آدم عليه السلام ، وقد جاء بمنهج وسار عليه ؟ فلو اتبعه القوم لقلَّدهم مَنْ بعدهم وهكذا ، ولاستمرَّ منهج الله ، إنما حكَمتكم الشهواتُ ، وسيطرتْ عليكم الرغباتُ ، فأخرجتكم عن منهج ربكم وخالفتم . ثم أليس منكم رجل عاقل يَعِى هذا الضلال ، ويأنف أنْ يتبعه ، ويبحث عن هدى ؟

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ (٧١) ﴾ [الصافات] يعنى : ليس هؤلاء بدعاً فى الضلال ، فقد ضلَّ قبلهم كثيرون ممَّنْ سبقوهم ، وهذا يعنى أن قلَّةً آمنتْ ، والكثرة ضلَّتْ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) ﴾ [الصافات] يعنى : لم نتركهم على غفلتهم ، بل أرسلنا إليهم الرسل تنذرهم وتحذرهم .

وقلنا : إن فى ذات النفس البشرية مناعات ذاتيةً ، تعصم صاحبها من المعصية ومن الزَّلل ، حتى لو كان مُنفرداً عن الناس ، فإنْ ضعُفَتْ عنده هذه المناعة فخالف منهج الله تلومه النفس اللوَّامة الأوَّابة ، فتؤنبه حتى يتوب ويرجع ، فإنْ ألفَ المعصية وضعُفَتْ عنده

النفس اللوَّامة ، ولم يَعُد له رادع من ذات نفسه رَدَعَه المجتمعُ الآمر بالمعروف ، الناهى عن المنكر ، المجتمع الناصح الذى يقيم بين أفراده قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر]

وفَرْق بين : وصُّوا وتواصَوْا ، تواصَوْا يعنى : يُوصى بعضكم بعضاً ، ففيها تفاعل بين أفراد المجتمع ؛ لأن المجتمعَ حتى المؤمن المتدين يتفاوتُ الناسُ فيه من حيث الاستقامة وتطبيق المنهج ، ولا بُدَّ أنْ يُوجَد فى المجتمع مَنْ يضعُف فيشذّ ، أو تصيبه غفلة ، فيجد مَنْ يُردعه ، ويجد مَنْ يُذكِّره حتى يعودَ إلى الجادة .

فإذا فُقد الرادع من المجتمع ، وعَمَّ الفساد المجتمع قلنا : تدخلتْ السماء برسول جديد ومنهج جديد .

نحن نعرف أن الرسول يأتى بشيراً ونذيراً . لكن الحق سبحانه هنا خَصَّ الإنذار ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الصافات] لماذا ؟ قالوا : لأن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المنفعة ، وقلنا لتوضيح هذه المسألة : لو أن شخصاً يرمى لك تفاحة مثلاً ، وآخر يرميك بحجر لا شكَّ أنك ستدفع الحجرَ عن نفسك أولاً.

وقوله : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : تأمل نتيجة الإنذار ، فرسل الله أنذروا الجميع ، لكن هل انتفع الجميعُ بالإنذار ؟ لا بل منهم مَن انتفع به ، ومنهم مَنْ أعرض عنه ، لذلك جاء الحق سبحانه بعدها بهذا الاستثناء : ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الصافات] أى : الذين أخلصهم واصطفاهم لعبادته وطاعته ، وهم الذين انتفعوا بالإنذار .

وبعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن موكب الرسل إجمالاً ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الصافات] أراد سبحانه أنْ يتكلَّم عنهم

ببعض التفصيل ، فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

لكن ، لماذا بدأ بسيدنا نوح عليه السلام ؟ قالوا : لأن دعوته كانت أشبه بدعوة سيدنا رسول الله ﷺ ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

الحق سبحانه وَصَّى نُوحاً ، ووصَّى غيره من الرسل ممَّنْ هم أعلى منه ، ومع ذلك عطفهم عليه ، وجعله فى المقدمة . قالوا : لأن لنوح خصوصيةً هى فى البيئة التى كان فيها ، وفيمن آمن به ، فكان المؤمنون به هم الذين نجَوْا فى السفينة ، وهم وحدهم الموجودون فى العالم كله فى ذلك الوقت ، فكأن له عموميةَ رسالة بخصوص الموضوع ، ورسول الله ﷺ له عمومية رسالة ، لكن فى عموم الموضوع .

قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الصافات] كلمة (نَادَانَا) تدلُّ على أنه - عليه السلام - استنفد كل وسائله فى دعوة قومه ولم تفلح ، بدليل أنه قال فى موضع آخر كما حكى القرآن : ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ

عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً (٢٧) ﴾ [نوح] وما دعا نوحٌ على قومه هذه الدعوة إلا بعد يَأْس منهم ، وبعد أنْ وجد أن أسبابه الإيمانية المحيطة به من أتباعه غيرُ كافية ، فلمَنْ يلجأ إذن ؟ يلجأ لله ، لأنه وحده القادر على أنْ يُخلِّصه منهم ، فيناديه : يا ربِّ أنت بعثتنى فلا تتخلَّ عنى ، وهذه ظاهرة فطرية لكل مستنجد مستغيث ، فأنت حين يطرأ لك خطر ، لا تستطيع دفعه بقوتك وحيلتك تستنجد بأقرب الناس إليك ، فإن لم تجد تستنجد بالبعيد ، فإنْ عَزَّ المغيثُ تقول - كما قُلْنا سابقاً - (يا هوه) يعنى : يا ربِّ ليس غيرك يُغيثنى .

ثم يأتى جواب هذا النداء : ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) ﴾ [الصافات] لأنه - عليه السلام - كان نعْمَ الداعى ، فلا بُدَّ أنْ يقابل بنعم المجيبون ، ولم يقُلْ : فلنعم المجيبُ ، لأن الحق يجيبه بجنوده فى الأرض مثل : الهواء والماء والملائكة .. ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ (٣١) ﴾ [المدثر] ونتيجة هذه الإجابة ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) ﴾ [الصافات]

وهنا وقف المستشرقون يقولون : كيف وقد أهلك اللهُ ولده ، أليس من أهله ؟ لكن فى موضع آخر قَصَّ القرآن علينا قصة نوح عليه السلام وولده الذى شَذَّ عنه ، فغرق مع المغْرَقين ولم تُفلح توسُّلاتُ نوح : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) ﴾ [هود]

وهذا اللبس ناتج من أن الناس أغفلوا أنَّ بنوة الأنبياء ليستْ بنوة النسب ، إنما بنوة الإيمان بالله ؛ لذلك رَدَّ اللهُ على نوحٍ : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود]

فالأهلية هنا أهليةُ عقيدةٍ وإيمانٍ بالله ، لا أهلية دمٍ ونسبٍ ؛ لذلك

إذا نظرتَ فى هذه الآية تجد الحق سبحانه لم ينْفِ الذاتَ ، إنما نفى فعل الذات ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود]

لذلك قال النبى ﷺ : « .. لا يأتينى الناس بأعمالهم ، وتأتونى بأنسابكم وأحسابكم »[(١)]

وكلمة ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) ﴾ [الصافات] المراد : الغرق ، والكرب هو : المكروه الذى لا تستطيع دفعه عن نفسك ، ولا يدفعه عنك مَنْ حولك حين تستغيثُ بهم ، فإنْ كان لك فيه حيلة للنجاة فلا يُسمَّى كَرْباً ، ووَصْف الكرب هنا بأنه عظيم ، لأنه جاء بحيث لا يملك أحدٌ دَفْعه ، فالماء ينهمر من السماء ، وتتفجَّر به الأرض ، ويغطى قِمَمَ الجبال ، فأين المفرُّ إذن ؟

ومعلوم أن الماء قوَام حياة كل حَىٍّ ، ومن أجَلِّ نعَم الله علينا ، لكن إنْ أراد سبحانه جَعَلَ الماء نقمة وعذاباً ، وقد رأينا فى قصة سيدنا موسى - عليه السلام - كيف نجَّى اللهُ موسى بالماء ، وأهلك فرعونَ بنفس الماء .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) ﴾ [الصافات] أى : الذين كانوا معه فى السفينة وهم المؤمنون بدعوته ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) ﴾ [الصافات] أى : فى الناس جميعاً من بعده يثنون عليه[(٢)] .

﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) ﴾ [الصافات]

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يا فاطمة ، أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سأبلُّها ببلالها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٤) كتاب الإيمان .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥٧٢٩/٨) عند تفسير هذه الآية : « أى : تركنا عليه ثناء حسناً فى كل أمة ، فإنه مُحبَّبٌ إلى الجميع ، حتى إن فى المجوس من يقول إنه أفريدون ، روى معناه عن مجاهد وغيره »

فالناس جميعاً عليهم حين يسمعون سيرة هذا النبى الذى تحمَّل فى سبيل دعوته المشاقّ ، ومكث فى دعوة قومه هذا العمرَ الطويلَ ، الذى خالف أعمار الناس أن يُسلِّموا عليه ، وينبغى حين نسمع ذكْره أنْ نُسلِّم عليه ، فنقول : عليه السلام ﴿ سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ (٧٩) ﴾ [الصافات] أى : اعْطه السلامة والسلام ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٨٠) ﴾ [الصافات] يعنى : هذه سُنة الله مُتَّبعة فى أنبيائه ، أنْ ينصرهم ويُبقى لهم الذكْرَ الحسن من بعدهم ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ﴾ [الصافات]

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٨٢) ﴾ [الصافات] يعنى : الكافرين . وكلمة (الآخرين) إهمالٌ لهم ، واحتقارٌ لشأنهم .

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ (٨٣) ﴾ [الصافات] أى : أن إبراهيم - عليه السلام - كان من شيعة سيدنا نوح . يعنى : من أتباعه الذين تابعوه ، وساروا على منهجه . والشيعة هم الذين يُشايعون الإنسان على فكره فيؤمنون به ، بل ويحاولون أنْ يحملوا دعوته إلى الناس معه ، وأنْ يتحمَّلوا الأذى فى سبيل ذلك ، ومن هنا سُمِّيَتْ الشيعة المذهب المعروف الذين شايعوا الإمام علياً رضى الله عنه ، وتعلمون طبعاً الفرق بين الشيعة والشيوعية .

لكن ، لماذا بدأ الحق سبحانه هنا موكبَ الرسل بنوح - عليه السلام - ثم تبعه بإبراهيم - عليه السلام ؟

يقول سبحانه : ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)﴾ [الصافات] هذه هى العلة ؛ لأن سلامة القلب هى الأساسُ فى الدين وفى العقيدة ، لأن فطرة الله التى فطر الناسَ عليها ابتداءً مبنية كلها على هيئة الصلاح والسلامة ، فإنْ طرأ على هذه الفطرة فسادٌ فمن الإنسان .

لذلك مدح سيدنا إبراهيم بسلامة القلب ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)﴾ [الصافات] وهو القلب الذى فطر عليه أولاً ظل كما هو لم يتغيَّر ، فعاش به ، وجاء به ربه فى الدنيا ، لذلك يظفر به فى الآخرة : ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء]

فالسلامة الأولى التى فطره الله عليها استصحبها باستصحاب منهج الله ، فسلِم فى الدنيا ، فلقىَ اللهَ بقلْب سليم فى الآخرة ، وهكذا وصف اللهُ نبيَّه إبراهيمَ على أحسن ما يكونُ الوصف .

وتأمل كلمة ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ (٨٤)﴾ [الصافات] فهى تُوحى بأن سيدنا إبراهيم لم ينتظر إلى أنْ يأتى له رسولٌ يدعوه ، إنما أقبل على الله بنفسه ، وجاء بفكره يبحث ويتأمل فى ملكوتِ السموات والأرض ، إلى أنِ اهتدى إلى الله .

لذلك لما أراد الله تعالى أنْ يُعرِّف نبيه إبراهيمَ ، وأنْ يُقدِّمه لمعشر الإيمان قال هذه البرقية الموجزة : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا .. (١٢٠)﴾ [النحل]

تعلمون أن الحق سبحانه خلق المواهب ووزَّعها على الناس ، فكلٌّ منَّا له موهبة فى شىء ما ، ذلك ليظلَّ الناسُ مترابطين ترابطَ حاجة ، فتحتاج لى وأحتاجُ لك ، أما سيدنا إبراهيم فقد جمع وحاز كل

المواهب التى فى أمة كاملة ، فالمعنى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (١٢٠)﴾ [النحل] يعنى : حاز مواهب أمة .

لذلك استحق - عليه السلام - أنْ يُريه الله ملكوتَ السموات والأرض ، فالناس جميعاً يكتفون بعالم المُلْك ، أما هو فقد تجاوز هذا العَالمَ إلى عالم الملكوت ، لماذا ؟ لأنه جرَّد نفسه عن شبهة اليقين بأحد غيرِ الله ، بدليل أنه لما أُلْقِى فى النار وجاءه المَلَك يعرض عليه المساعدة : (ألكَ حاجة) ؟ فيقول سيدنا إبراهيم بما لديه من رصيد الإيمان واليقين بالله (أما إليك فلا)[1]. يقولها فى هذا الوقت العصيب ، وهذا الكرب المُلِمّ .

وقوله سبحانه : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥)﴾ [الصافات] وهذه تُعَدُّ من سلامة القلب ، لأنه أحبَّ شيئاً وسَعِد به ، فأراد أنْ ينقله إلى غيره وأوَّلهم الأقارب ، فهم أَوْلَى الناس بأنْ تُعدِّى لهم خيرك ؛ لذلك أول ما دعا إبراهيم دعا أباه وقومه : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥)﴾ [الصافات]

وكلمة (لأبيه) وردتْ فى القرآن عشرَ مرات ، واحدة فقط منها لسيدنا يوسف - عليه السلام - فى قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ (٤)﴾ [يوسف] والتسع الباقيات لسيدنا إبراهيم بدايةً من سورة الأنعام إلى سورة الممتحنة ، من هذه التسع موضع واحد جمع فيه بين الاسم العَلَم والوصف ، فقال : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤)﴾ [الأنعام]

وفى الثمان الباقيات جاءت كلمة (لأبيه) بدون ذكر آزر ، فكأن كلمة آزر جاءتْ فى هذا الموضع لتُشعرنا بشىء ، هو أنك إذا جمعتَ بين الوصف والعَلَم ، فلا بُدَّ أنْ يكون الوصفُ مشتركاً مع غير العَلَم ، وضربنا لذلك مثلاً قُلْنا : إذا أردتَ أنْ تسألَ عن شخص ، وقابلك ولده فى الشارع تقول له : أبوك موجود ؟

لأن هذا السؤال لا ينصرف إلا إلى أبيه الحقيقى ، فإنْ قلتَ : أبوك محمد موجود ؟ فإنك لا شكَّ تقصد عمه ، لأنك ميَّزته باسمه لإزالة الاشتراك فى الأُبوّة .

إذن : آزر لم يكُن الأب الحقيقى لسيدنا إبراهيم ، إنما هو عمه ، ولا غرابةَ فى ذلك ، فالقرآن يُسمِّى العم أباً فى قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) ﴾ [البقرة]

ومعلوم أن إسماعيل أخو إسحاق ، ومع ذلك أدخله فى جملة الآباء بالنسبة لسيدنا يعقوب ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

وسيدنا إبراهيم فى معرض دعوته لأبيه وقومه يسألهم هذا السؤال : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) ﴾ [الشعراء] وفى موضع آخر : ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) ﴾ [الصافات] و ﴿ مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) ﴾ [الأنبياء]

وهنا : ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) ﴾ [الصافات] وهذه كلها استفهام إنكارى ، وقُلْنا : إن الاستفهام أقوى من الإخبار ؛ لأن الإخبارَ يمكن أنْ يُكذَّب ، أمَّا الاستفهام فيجعل الخصم يُقرّ بالقضية ، ولا يستطيع أنْ يُكذِّبها .

والإفْك هو أقبح أنواع الكذب ؛ لأن القُبْح فى الكذب على مراحل ،

كيف ؟ قالوا : ننظر فى الموضــوع الذى يكون فيه الكذب ، فإنْ كان فى الحقيـقة العُلْيَا فى الذات الإلهية ، فهـو أقبح الكذب كمَنْ يدَّعى لله شريكاً .

فإنْ كـان الكذب على البـشر فـهو بحـسب مَنْ تكذب فى حَـقِّه ، فمثلاً الذين اتهموا السيدة عائـشة وخاضوا فى عِرْضـها سَمَّاهُ الله إفْكاً لشناعتـه وعظَم منزلة مَنْ قيل فى حَقِّـه هذا الكذب ، فقال سبـحانه :
﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ . . (١١) ﴾ [النور]

ومن معانى الإفك قَلْب الشـىء على وجهـه ، وقَلْب الحقيقة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم]

والمـعنى : أتريدون آلهـة إفكاً وكـذباً دون الله ﴿ فَـمَـا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَـالَمِـينَ (٨٧) ﴾ [الصـافـات] أخـبـرونا مـاذا تظنون فى الله ؟ ومـا الذى لا يعجبكم فى ألوهيته سبحانه ؟ وكـيف تخدعون أنفسكم ، فتنصرفون عنه سبحانه ، وهو رَبُّ العالمين ، ومثَالُ ذلك قوله تعالى :
﴿ يَـٰأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) ﴾ [الانفطار]

لذلك قال أحد العارفين : كـأن الحق سبحانه لقَّن الناسَ الجوابَ ، فالذى غـرَّنى بالله أنه كريم . والطُّرْفة هنا أن رجـلاً رأى آخر يصلى صـلاة على عَجَلٍ ، ينقـرها نقـراً ، فقـال له : بالله لو عليك خـمسـة قروش لواحد ، يصح أنك تعطيها له مـمسوحة ؟ فقال الرجل : والله ، لو كان كريماً سيقبلها ولا ينظر فيها .

فكأن الحق سبحانه يتعجَّب من هؤلاء الذين أشركوا به سبحانه ، مع وضوح الدليل على بُطلان شركهم ، والشىء لا يُتعجَّب منه إلا إذا جاء على غير ما يجب أنْ يكونَ عليـه من الصِّدْق ؛ لذلك قال سبحانه

فى أول البقرة : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾ [البقرة]

يعنى : هذا أمر عجيب منكم ، ومسألة لا يقبلها العقل .

ثم بدأ سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يُحقِّق قَوْلَ ربه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٧٥) ﴾ [الأنعام] وسبق أنْ فرَّقْنا بين الملك والمُلْك والملكوت .

يقول سبحانه :

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبَۢا بِٱلْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾

قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النُّجُومِ (٨٨) ﴾ [الصافات] هذه أولى خطوات إبراهيم إلى عالم الملكوت ، والنظرة هنا ليستْ هى النظرة الخاطفة العابرة ، إنما نظرة التأمُّل الفاحصة المتأنية ، فهى بمعنى رأى بتمعُّن واستنباط ، ومن ذلك قولنا : هذه مسألة فيها نظر . يعنى : تأمُّل وتأنٍّ . والنجوم مفردها نجم ، وهو كل مضىء فى السماء إضاءةً ذاتية ، لا أنْ يعكس ضوء الشمس ، وعليه فالشمسُ نَجْم من النجوم .

فقوله تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النُّجُومِ (٨٨) ﴾ [الصافات] دَلَّ على أنها نظرة طويلة مُتأملة مستوعبة ، لأنها استوعبتْ كوكباً وقمراً وشمساً . لذلك شرح لنا هذه النظرة فى موضع آخر ، فقال سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام]

إذن : كانت نظرةُ إبراهيمَ طويلةً متأنيةً ؛ لأنها استغرقتْ طيلة مطلع الكوكب وغيابه ، ثم مطلع القمر وغيابه ، ثم مطلع الشمس وغيابها ، فلما رأى - عليه السلام - أن هذه المرائى لا تصلح لأنْ تكونَ آلهة تُعْبد ، قال : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الصافات] البعض يعدُّها كذبةً من كَذبات سيدنا إبراهيم أنه قال لقومه : إنى مريض .

إذن : أخذوا السُّقْم على أنه سُقْم الأبدان[1] والمراد هنا سُقْم القلب ، وشُغُله بما لا يستطيع الإنسانُ تحمُّله من إنكار القوم لمسألة الألوهية .. فهذه قضية تتعبه وتُؤرِّقه .

وهذا هو السُّقم الذى أراده سيدنا إبراهيم ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الصافات] أى : مُجهد فكرياً من إنكار الناس لقضية الألوهية . إذن : إبراهيم عليه السلام لم يكُنْ ينظر فى النجوم ليرى دليلاً يقتنع هو به ، إنما يبحث عن دليل مادى فى الكون ينقله للناس .

لكن ، ما الذى أحوجه أنْ يقولَ للقوم : إنى سقيم ؟ قالوا : لأنهم كانوا فى يوم عيد يجتمعون فيه ، فقال : إنى سقيم لكى لا يخرج

(١) فَهْمُ تصوروا أن قوله لهم (إنى سقيم) : أى إنى مطعون أى : مصاب بالطاعون ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الصافات] أخرج ابن أبى حاتم عن سفيان فى قوله (إنى سقيم) قال : طعين ، وكانوا يفرون من المطعون . [الدر المنثور للسيوطى ٧/١٠٠]

معهم ، وليتفرغ هو لما عزم عليه من تحطيم الأصنام ، يقول تعالى : ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) ﴾ [الصافات] أى : انصرفوا وتركوه .

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) ﴾ [الصافات] معنى راغ : ذهب خُفيةً ، بحيث لا يراه أحد ، أو تسلَّل كمن يريد الانصراف من مجلس دون أن يشعروا به ، فيمشى خطوتين ثم يقف ، ثم يمشى ، ثم يتوارى خلف شىء وهكذا حتى يخرج ، وهذا المعنى نقوله بالعامية : فلان زوَّغ أو زاغ .

وسيدنا إبراهيم فعل ذلك وتسلل إلى آلهتهم ليحطمها ، لكن قبل أنْ يحطمها استهزأ بها ﴿ فَقَالَ (٩١) ﴾ [الصافات] أى : للآلهة ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) ﴾ [الصافات] فلم يُجيبوا ، فقال : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) ﴾ [الصافات] قالها سخريةً واستهزاءً بهم .

بعد ذلك مال عليهم ضرباً ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) ﴾ [الصافات] وقلنا : إن اليمين جهة القوة . كما فى قوله سبحانه : ﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) ﴾ [الصافات] أى : من جهة القوة والقهر . والمعنى أن سيدنا إبراهيم أخذ يُحطمها بقوة ويُكسِّرها ، حتى أحدث التكسيرُ صوتاً عالياً سمعه القوم ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) ﴾ [الصافات] أى : مسرعين .

فلما رآهم ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾ [الصافات] الاستفهام هنا للتعجُّب وللاستنكار ، يقول لهم : كيف تعبدون إلهاً من صُنْع أيديكم تنحتونه من الصخور ، فأنتم أعلمُ الناس به ، وتروْنه يقع ، فتقيمونه فى مكانه ، وينكسر فتصلحونه ، ويجرفه السيل ويمرغه فى الوحل فتنتشلونه .

إذن : كيف يُعْبد مثل هذا الإله ، وكيف تنصرفون إلى عبادته ،

وتتركون عبادة الله الإله الحق الذى خلقكم ، وخلق ما تعملون ؟

وطبعاً ليس لديهم جواب لهذا السؤال ، وليس لديهم رَدٌّ على إبراهيم إلا ردّ القوة والبطش ، فلا حجَّةَ لديهم ، ولا منطقَ يدافعون به عن آلهتهم :

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) ﴾

تعلمون قصة النار التى أوقدوها ، ثم ألقوْا بنبىٍّ الله إبراهيم فى وسطها ، هذا هو الكيد الذى أرادوه بإبراهيم ، وما كان الله تعالى ليبعثَ نبياً ثم يُسْلمه ، فردَّ الله كيدهم عليهم ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) ﴾ [الطارق]

ومعنى ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ (٩٨) ﴾ [الصافات] أى : فى هذا المقام . وفى هذا الموقف الذى فعلوه بإبراهيم ، فليسوا الأسفلين لأنهم كفار ، إنما (أسفلين) لأنهم تعالَوْا على إبراهيم وتمكَّنوا منه ، وقدروا على إلقائه فى النار فعلاً وهى مشتعلة ، وظنوا ساعتها أنهم هم العالون .

لكن سرعان ما تكشفتْ حقيقة الموقف ، وظهرتْ الآية الكبرى التى أرادها الله تعالى ؛ فلو أراد الله لَنجَا إبراهيم ، فلم يتمكَّنوا من الإمساك به ، ولو أراد سبحانه لأمطرتْ السماء على النار فأطفأتها ، لكن أراد الله أنْ يُبطل حججهم ، فلو هرب إبراهيم من أيديهم لَقالوا : لو لم يهرب لأحرقناه ، ولو أمطرتْ السماء لقالوا : ظاهرة طبيعية لا دَخْلَ لنا بها .

لكن ها هو إبراهيم ، وها هى النار تشتعل ، ومع ذلك ينجو إبراهيم بعد أنْ جاء نداء الحق وكلمة الحق للخَلْق ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا

وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

الخطاب من الله تعالى ، والأمر للنار على طبيعتها ، وبذات مواصفاتها ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا (٦٩) ﴾ [الأنبياء] لا في ذاتك ، إنما ﴿ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء] فهذه خصوصية لهذه النار بالذات ، فهي في ظاهرها مشتعلة ، وفي حقيقتها ﴿ بَرْدًا وَسَلامًا (٦٩) ﴾ [الأنبياء] على إبراهيم ، فهي مثل شجرة الزقوم ، تبدو لهم شجرةً خضراءَ ، وهي نار تحرقهم .

وهكذا جعلهم الله في هذا المقام ﴿ الأَسْفَلِينَ (٩٨) ﴾ [الصافات] أي : في الكيد الذي دبَّروه ، فهم يكيدون والله يكيدُ ، ولا بُدَّ أنْ يُؤخَذَ الكيدُ من خلال فاعله .

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) ﴾

لَمَّا لم يجد إبراهيم - عليه السلام - فائدة من دعوته لقومه ، قال : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) ﴾ [الصافات] والمعنى ذاهب لنصرة دينه وإلا فربُّه موجود معه ، وفي كل مكان ، أو مهاجر إلى ربي . أي : إلى مكان آخر ، حيث أجد مَنْ يسمعني ويستجيب لدعوتي ، وما دُمْتُ ذاهباً إلى ربي ﴿ سَيَهْدِينِ (٩٩) ﴾ [الصافات] أي : يهديني المقام الطيب المناسب لدعوتي .

ثم يدعو إبراهيمُ ربَّه ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) ﴾ [الصافات] أي : هَبْ لي ذريةً صالحةً مؤمنة ، ونبيُّ الله حين يتمنى الذرية لا يتمناها لتكون ذكْرى أو عزوة أو امتداداً ينتقل إليه الميراث ، فالأنبياء يريدون الوَلد ليَحْمل رسالتهم ، وليكون نموذجاً إيمانياً يرثه في دعوته ؛ لذلك قال في قصة سيدنا زكريا : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) ﴾ [مريم]